الثروة وأهمّية توزيعها بالعدل في القرآن الكريم

◆ **الشيخ إبراهيم حسن**[1]

■ **خلاصة**

يُعتبر مفهوم الثروة، من المفاهيم الحياتيّة الهامّة التي تناولها القرآن الكريم، حيث قدّم رؤية متكاملة عن حقيقتها، مصادرها، ومجالات توزيعها العادل. في هذه الدراسة، ومن خلال المنهج الوصفي- التحليلي، حاولنا الكشف عن هذه الرؤية. حيث تبيّن لنا أنّ القرآن يُعطي للثروة أهمّية نسبيّة، ترتبط بقدر إيصالها الإنسان إلى سعادته في الدنيا والآخرة.. وهذا يتطلّب من الإنسان المسلم، مُراعاة مصادرها، من حيث الكسب الحلال وتجنُّب المكاسب المحرمة.

والمصادر التي ذكرها القرآن للثروة، قسمين: ماديّة ومعنويّة. الماديّة ومنها: السماء، الأرض، البحار والأنهار، الثروة الحيوانيّة، الموارد البشريّة، والعمل..إلخ. أمّا المصادر المعنويّة فأهمّها: الإيمان والتقوى، الشكر، الاستغفار، الإنفاق في سبيل الله، وتطبيق الأحكام الإلهيّة. كما تحدّث القرآن الكريم بالتفصيل، عن مجالات توزيع الثروة وإنفاقها، حيث حدّدها في ثلاثة وجوه: ما يتعلّق بعلاقة الإنسان بربّه، وما يتعلّق بعلاقته بنفسه، ثمّ علاقته بالمحيط الطبيعيّ والمحيط الاجتماعيّ من حوله، لنستنتج أنّ الإطار العامّ الذي يحكم الثروة، تحصيلاً وإنفاقًا، هو إطار العدالة، بما تعنيه من وضع كلّ شيءٍ في موضعه، وِفق ما بيّنه القرآن الكريم، ورسم حدوده في آياته، كما تكفّلت الشريعة بتبين وتحديد تفاصيلها وتطبيقاتها.

الكلمات المفتاحية:

الثروة – المال – الرزق - مصادر الثروة- العدالة في التوزيع - الرؤية الاقتصادية القرآنيّة.

1 - طالب دكتوراه في التفسير المقارن، جامعة المصطفى(ص) العالمية - قم المقدّسة – إيران.

المقدّمة

مع تطوّر المجتمعات البشريّة، تزداد حاجتها لتأصيل مفاهيم تأسيسيّة تُعايشها في حياتها اليوميّة. ولمّا كان القرآن الكريم كتابًا ﴿**يِهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ**﴾[الإسراء:10]، نزّله الله ﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَىْءٍ**﴾[النحل:89]، كان لزامًا علينا أن نرجع إليه، لتقويم ما بين أيدينا من نظريّات، تنعكس على أرض الواقع وفي جميع المجالات.

من بين هذه المفاهيم التي لها أهمّية بارزة اليوم: مفهوم الثروة ومصادرها، وسُبل توزيعها بالعدل. فقد تحدّث القرآن عن الثروة في آياتٍ كثيرة، مقدّمًا رؤية متكاملة حول حقيقتها وفلسفتها، ومحدّدًا دور الإنسان في التعامل معها، من حيث كيفيّة تحصيلها وتوزيعها، ضمن إطار العدالة، التي يُوليها القرآن الكريم اهتمامًا خاصًّا.

انطلاقًا من أهمّية هذا الموضوع، فقد استعرضنا عددًا من الآيات القرآنيّة، واستفدنا من مضامينها، لتحديد معالم الرؤية القرآنيّة عن مفهوم الثروة، ومصادرها الماديّة والمعنويّة. وطبيعة هذه الثروة من حيث الحلال والحرام، والضوابط التي تحكم عمليّة توزيع الثروة ضمن إطار العدالة، حيث يُلاحظ أنّ القرآن الكريم، قد تناول في هذه «الرؤية الاقتصاديّة»، تفاصيل دقيقة تتعلق بحياة البشر، وترتبط بمستقبلهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي سبيل الكشف عن هذه الرؤية القرآنيّة، فقد قُمنا بتفسير وتحليل عددٍ من الآيات القرآنيّة، المتعلقة بالثروة، تحصيلاً وإنفاقًا. وقد اعتمدنا المنهج الوصفي- التحليليّ، حيث انطلقنا أوّلا من الآيات القرآنيّة وما احتضنته من مضامين، لتشكّل هذه الدراسة نموذجًا من التفسير الموضوعيّ، بمنهج تفسير القرآن بالقرآن، دون إغفال الاستفادة من الأحاديث والروايات الواردة عن الرسول(ص) والمعصومين(عليهم السلام)، بما يصبّ – في النهاية - في الكشف عن الرؤية المتكاملة لموضوع الثروة والمال في القرآن الكريم.

مفهوم الثروة لغةً واصطلاحًا

الثروة مفهومٌ متداولٌ، لا تحول معرفته عند الناطقين بالضادّ، دون الرجوع إلى جذره اللغويّ وتعريفه الاصطلاحيّ، للتدقيق في معناه ودلالته.

يقول ابن فارس: «الثَّاءُ وَالرَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ الْكَثْرَةُ، وَخِلَافُ الْيُبْسِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: ثَرَا الْقَوْمُ يَثْرُونَ، إِذَا كَثُرُوا وَنَمَوْا. وَأَثْرَى الْقَوْمُ إِذَا كَثُرَتْ أَمْوَالُهُمْ... وَالْمَالُ الثَّرِيُّ الْكَثِيرُ. وَثَرَا اللَّهُ الْقَوْمَ كَثَّرَهُمْ. وَالثَّرَاءُ: كَثْرَةُ الْمَالِ»[1].

إذًا، أصل المعنى اللغويّ يدلّ على الكثرة، وهي تشمل المال والبشر وغيرهما، غير أنّ الفيّومي، يذكر أنّ الثروة خصوص الكثرة في المال: «الثَّرْوَةُ كَثْرَةُ الْمَالِ. وَأَثْرَى إثْرَاءً اسْتَغْنَى»[2]. وكذا نلاحظ أنّ كثرة الاستعمال في المال وما يُملَك.

وعلى الرغم من أنّ كلمة «ثروة» ومشتقّاتها، لم ترد في القرآن لفظًا، ولكنّ الحقل الدلاليّ المرتبط بها ورد في آياتٍ عديدة، حيث أغنى القرآن البحث في هذا المفهوم، وإن ورد التعبير عنه بألفاظ متنوّعة لمفاهيم قريبة منه، من قبيل: «المال»، «الخير»، «الرزق»، «الكنز»، ومشتقّاتها...إلخ.

وبما أنّ معنى الثروة يدلّ على كثرة المال (إمّا على نحو الحصر كما ذكر الفيّومي، وإمّا على سبيل الغالب في الاستعمال)، سنتطرّق إلى معنى المال كما ورد في الاستعمال القرآنيّ، إذ تدلّ كلمة المال على « مُطلق ما يملكه الإنسان، من النقدين والمواشي والرقيق وغيرها»[3]. إذًا، فالمال لا يقتصر على النقدين، بل يشمل جميع ما يُملَك، ومن هنا فالثروة تعني الكثرة في ما يُملَك. ونذكر هاهنا ملاحظتين:

1) الثروة، تتضمّن لغةً الكثرة، ولكنّ الكثرة مفهومٌ نسبيّ «مشكّك» يختلف باختلاف الظروف والحيثيّات والتقديرات، فما يراه بعضهم كثيراً، قد يراه آخرون قليلاً، ويبقى القَدر المشترك أنّها تدلّ على كمّية، ولذا قد يُسأل الفقير: «كم ثروتك؟»، والحال أنّ ما يملكه قليل، إلّا أنّ المراد هو السؤال عن كمّية ملكه، مع غضّ النظر عن كثرته أو قلّته.

2) «الثروة»، مقرونةٌ بالمال في الأصل، وتُستعمل مع غير المال أيضًا ممّا يُملَك، بل من مطلق ما

1- أحمد بن فارس ابن زكريّا، معجم مقاييس اللغة، ج1، ص 374-375.
2- أبو العباس اليومي، المصباح المنير، ج1، ص81.
3- حسن المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج11، ص235.

يعود منه منفعة، ولذا يقال مثلاً: الثروة المائيّة، الثروة الحيوانيّة، الثروة الطبيعيّة، الثروة البشريّة، وغير ذلك. فهذه الدلالة على الكمّية تدلّ على النوعيّةٍ أيضًا، إذا أضيفت كلمة «ثروة» إلى نوعٍ من الأنواع لتحديدها.

ومن هنا، يمُكن أن يقال: إنّ الثروة اصطلاحًا، تدلّ على كميّة ما يمُلَك أو يُجلب من منفعةً، وإذا أضيفت إلى نوعٍ ما كانت محدّدة به.

● النظرة القرآنيّة للثروة

في السؤال عن موقف القرآن من الثروة، وما يتفرّع عنها أو يلحق بها، نُلاحظ وجود آياتٍ يُفهَم منها ذمّ الأموال، فيما نلاحظ وجود أخرى تُفيد العكس، فكيف يمكن الجمع بينها لاستخراج النظرة القرآنيّة للثروة؟

في الواقع، يقرّر القرآن أنّ لحبّ الثروة جذورًا في فطرة الإنسان، وهذا الحبّ يأخذ أشكالاً ومظاهر عدّة: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[آل عمران:14]، فأصل حبّ الإنسان ورغبته في امتلاك الثروة، هو ممّا غُرس في فطرته، ويشترك في ذلك جميع البشر، نعم، يبقى الكلام في التعامل مع هذا الحبّ الموجود.

وقد صرّح القرآن بذلك، مؤكدًا على هذه الفطرة الإنسانيّة في آياتٍ أخرى، مثل: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾[الفجر:20]، ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾[العاديات:8]. بناءً على أنّ المراد من «الخير»، هو المال، كما ورد في آياتٍ أخرى. وكذا أكّد القرآن على وصف المال والبنين بالزينة، حيث قال: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...**﴾[الكهف:46]، ووَصْفُ الزينة يؤكّد ما للأموال والأولاد من جمال ورونق، ولكنّه يشير أيضًا إلى ما تتميّز به الزينة عادةً من العَرضيّة، فلا تلبث أن تزول، لذلك ينبغي أن لا يتعلّق القلب بالزائل، بل المطلوب التركيز والاهتمام بالباقي، ولذا، جاء في ذيل الآية: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا**﴾[الكهف:46].

كما يصف القرآن المال وصفًا يظهر أهمّيته في حياة البشر، حيث يقول: ﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا...**﴾[النساء:5]، فهذه الأموال التي أعطاها الله لعباده، جعلها عنصرًا مهمًّا تقوم به حياتهم، ومع غياب هذا العنصر، يفتقد المجتمع لـ «قيامه».

هذه النظرة الإيجابيّة، نجدها كذلك في الآيات التي تعبّر عن المال بالـ«خير»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ...**﴾[البقرة:181]. وكيف لا تكون الأموال خيراً، وهي عطيّة إلهيّة يمنحها لعباده حسب ما يشاء؟ ولذا نجد آيات عديدة تعبّر عن الأموال بأنّها فضلٌ إلهي، كما في الآية: ﴿ **فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[التوبة:76]. ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ...**﴾ (الجمعة:10).

وفي هذا السياق كذلك، هناك آيات تنتقد القول بحرمة الاستفادة من زينة الحياة الدنيا: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...**﴾[الأعراف:32]، فهذه «زينة الله»، والمؤمن أولى بها، وقد منحها الله لبعض عباده، حيث يذكر لنا القرآن نماذج عن مؤمنين أغنياء، كداوود وسليمان (ع) ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾[النمل:16]، وكذلك ذو القرنين الذي يقول عنه القرآن: ﴿**إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**﴾[الكهف:84].

إذًا، فالقرآن لا يذمّ التنعّم بالثروات بحدّ ذاته، وإنّما يذمّ التعلّق السلبي بهذه الثروات، بما يُعطيها أهمّية فوق كونها زينةً وعرضًا زائلاً. ولذا ينتقد القرآن الذين يتوهّمون أنّ الثروة تجلب الخلود للإنسان: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾[الهمزة:1-3]، كما يصرّح بأنّ كثرة الأموال والأولاد ليست علامة على أنّ صاحبها مرضيٌّ عنه. فكما ذكرنا، فالثروة وسيلة لاختبار الإنسان، كيف يتصرّف بها؟ ويتعامل معها؟، وبالتّالي، فالذي لا يُحسن التصرّف بما يمتلكه من موارد، تنقلب هذه الموارد إلى وبالٍ عليه: ﴿**فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾[التوبة:55]. هذا في مُقابل نظرة شائعة عند كثيرٍ من الناس، تقوم على تقويم كلّ فردٍ على أساس ماله وثروته.

وتأكيدًا على إدراك موقع الثروات من حياة الإنسان، يُفيدنا القرآن بأنّ المال والثروة، هما بمنزلة أمانة بين يديّ الإنسان، وعليه أن ينظر كيف يتصرّف في هذه الأمانة، من منطلق كونه خليفة الله في أرضه: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[البقرة:30]، وهذا الاستخلاف أمانة إلهيّة تُشير إليها الآية الكريمة: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ...**﴾[الأحزاب:72]. كما يؤكد القرآن أنّ الثروات التي يحصل عليها

الإنسان أو يمتلكها، هي من لوازم هذا الاستخلاف، يقول سبحانه: ﴿ **آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ...**﴾[الحديد:7].

كما تُذكّر آيةٌ أخرى بأنّ ملكيّة الإنسان اعتباريّة جعليّة، وأنّ المالك الحقيقيّ هو الله سبحانه وتعالى: ﴿**.. وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..**﴾[النور:33]، فالمال مال الله، وغاية الأمر، أنّه آتاه الناسَ ليكون وسيلة لاختبارهم، ولهذا عبرّ عن الثروات بأنّها «فتنة»، أي وسيلة للافتتان بمعنى الاختبار: ﴿**وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾[الأنفال:28]، وذكر أنّ الإنسان سيُسأل عن ما أُنعم الله عليه من ثروات، وسيُطالب بذلك ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾[التكاثر:8].

ومن هنا، نفهم أنّ الذمّ يتّجه إلى التعلّق السّلبي بالثروات، بما يُودي إلى الضلالة والخسران، فالمذموم واقعًا هو فعل الإنسان وسلوكه، وتصرفه بالثروات، لا امتلاك الثروات بحدّ ذاتها. ولذا ورد عن الإمام الصادق(ع) أنّه قال: « لعن الله الذهب والفضّة، لا يحبّهما إلاّ من كان جنسهما». فقال الراوي متعجّبًا: «جُعلت فداك الذهب والفضّة؟» قال (ع): «ليس حيث تذهب إليه، إنّما الذهب الذي ذهب بالدين، والفضّة التي أفاضت الكفر»[1].

● ملاك أهمّيّة المال

وإذا كانت الثروات ليست مذمومةً بذاتها، فهي ليست ممدوحةً بذاتها أيضًا، وإنّما تحظى الأموال والثروات بالأهمّيّة عندما تكون طريقًا لتأمين السعادة الأبديّة في الجنّة. وبتعبير القرآن، فهذه الأموال يمكنها أن تكون جزءًا من ثمن الجنّة، من خلال توظيفها في المسار الصحيح: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...**﴾[التوبة:111]. وقد تكفّل القرآن ببيان هذا المسار، في مضامين الآيات القرآنيّة المتعلقة بالمال والثروة. وبهذا تكون الأموال طريقًا لتحصيل الخير في الدنيا والآخرة: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ...**﴾[البقرة:272].

إذًا، القيمة الحقيقية للثروة، في كونها تُساعد الإنسان للوصول إلى سعادته، بتوجيهه لصرف الأموال في الاتّجاه الصحيح، وأمّا مجرّد وجودها بيد الإنسان، فليس له أيّ قيمة، كما يصرّح القرآن في الردّ على أوهام بعض الأثرياء: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ**

1- الصدوق، معاني الأخبار، ج1، ص313.

الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ:34-37]. وبالتالي، فقيمة الأموال باقترانها بالإيمان والعمل الصالح.

وفي موضعٍ آخر، هناك تأكيد على هذا المعنى، حيث تقول الآيات الكريمة: **﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾**[المؤمنون:56]، ثمّ بعد ذلك يأتي الردّ والتوضيح: **﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾**[المؤمنون:61].

ولسلوك الإنسان تُجاه الثروات جانبان:

جانب الكسب: وهنا على المرء أن يُراعي الطرق الشرعية والمُحلّلة للكسب والتكسُّب ويتجنّب غير الشرعية والمحرّمة منها يقول تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ...﴾**[النساء:29]، ويقول في آية أخرى: **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا..﴾**[البقرة:275]. وقد تكفّلت الشريعة ببيان تفاصيل ذلك.

جانب الإنفاق: أي أن يسلك الطريق التي يتجنّب فيها الوقوع في الحرام، كما يتجنّب التخلّف عن أداء ما يتوجب عليه: **﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾**[الذاريات:19]، وقد تكفّلت الشريعة ببيان تفاصيل ذلك أيضًا.

وفي سبيل استخراج الرؤية القرآنيّة للجانبين المذكورين، نتناول البحث أوّلاً عن مصادر الثروة المذكورة في القرآن، حيث نجدها تنقسم إلى مصادر ماديّة وأخرى معنويّة، ثمّ نبحث عن ضوابط إنفاق الثروات وتوزيعها بالعدل، حسب ما ورد في الآيات القرآنيّة الكريمة.

● المصادر الماديّة للثروة

1 - السماء

لا يختلف اثنان في أنّ نعمة الوجود هي أهمّ نعمةٍ ماديّة عند الإنسان، والوجود الماديّ للإنسان المتمثّل ببدنه قائمٌ على الحياة، وحياة جسم الإنسان بل جميع الكائنات الحيّة تتوقّف على الماء: **﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...﴾**[الأنبياء:30]. وهذا الماء ينزل من السماء فتدبُّ الحياة في

الأرض: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾[النحل:65]. وقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:22].

هذا التعبير الوارد في القرآن أكثر من عشرين مرّة، يدفعنا لذكر السماء أوّلاً عند الحديث عن المصادر الماديّة للثروة، فالماء النازل منها ثروة للإنسان، إمّا مباشرة بتأمين حاجته من الماء الذي لا يَحيى دونه، وإمّا لآثار الماء في إنبات الزرع والكلأ، وبالتالي، تأمين الرزق للإنسان وللأنعام التي يعود نفعها إلى الإنسان في نهاية المطاف، يقول عز وجل:﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:10-11]، و يقول سبحانه في آية أخرى:﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾[طه:53-54].

ولكن، هل جانب الثروة الماديّة في السماء، يقتصر على نزول الماء فقط، أم هناك جوانب أخرى؟ يُشير القرآن إلى فوائد النجوم والكواكب، ومنها الشمس والقمر، وأنها مسخرة لفائدة الوجود الإنسان في الأرض: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[إبراهيم:33]، ﴿وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل:16]، ولهذه النجوم والكواكب فوائد جمّة لسنا بصدد التعرّض لها، وكذلك ثمّة كلامٌ كثيرٌ، عن تركيب طبقات الجوّ، ودورها في حفظ الأرض وتأمين منافع له، وعن أهمّية الرياح وتأثيرها...إلخ، لكن صفوة القول هنا، أنّ مصدريّة السماء للثروة لا تقتصر على تأمينها للماء، وإنْ كان هو المصداق الأهمّ والأوضح. ولذا جاءت الروايات عن المعصومين(ع) لتشرح الرزق في قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:22]، بأنّه المطر[1].

غير أنّ صاحب (التفسير الأمثل) يعلّق على ذلك فيقول: «هذا المعنى قد يكون مصداقًا جليًّا من مصاديق الآية، في حين إنّ سعة مفهوم الرزق، تشمل حبّات المطر وغيرها، كنور الشمس الذي يأتي من السماء، وله أثره الفاعل في الحياة، والهواء الذي هو أساس حياة الموجودات. كلّ هذا لو أخذنا مفهوم السماء بالمعنى اللغوي، أي السماء التي فوقنا، إلّا أنّ بعضهم فسّرها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة أو اللوح المحفوظ، الذي تقدّر منه أرزاق العباد. وبالطبع فإنّ الجمع بين التفسيرين ممكن..»[2].

1- عبد الحويزيّ، تفسير نور الثقلين، ج5، ص124.
2- ناصر الشيرازيّ، التفسير الأمثل، ج17، ص92.

وإذا أخذنا الجانب الغيبيّ في نسبة الرزق إلى السماء، فإن السماء بهذا الاعتبار تكون من المصادر المعنويّة للثروة، كما يشير العلاّمة الطباطبائيّ في قوله: « ويمكن أن يكون المراد به عالم الغيب، فإن الأشياء، ومنها الأرزاق، تنزل من عند الله سبحانه، وقد صرّح بذلك في آيات كقوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ**﴾[الزمر:6]، وقوله: ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**﴾[الحديد:25]، وقوله على نحو العموم: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[الحجر:21]، والمُراد بالرزق، كلّ ما ينتفع به الإنسان في بقائه، من مأكل ومشرب وملبس، ومسكن ومنكح وولد وعلم وقوّة وغير ذلك»[1].

2 - الأرض

يقول تعالى: ﴿**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ**﴾[الحجر:19-20]. تصف الآية الأولى طبيعة التكوين «الجيولوجيّ» للأرض بما يجعلها مؤهّلة للسكن والاستصلاح، فهي بالغالب «ممدودة» بما يُسهّل فيها الحركة والانتقال من جهة، والاستصلاح والاستعمار من جهةٍ أخرى. وبالتالي فالأرض كلّها ميدان لتحصيل الثروات من خلال أصل فكرة استعمارها واستصلاحها، كما يقول تعالى على لسان صالح(ع) مخاطبًا قومه: ﴿**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[هود:61]، حيث إنّ الأرض بتكوينها الجيولوجيّ مُهيّأة لكي ينتج الإنسان من خلالها، ويُضاعف من ثروته، كما تشير الآية: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[الملك:15]، كما إنّ الأرض تحمل أماكن طبيعيّة يستفيد منها الإنسان في السكن والمأوى، كما قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا...**﴾[النحل:81]، «أي مواضع تسكنون فيها، من كهوف وثقوب وتأوون إليها»[2].

ثمّ إنّ الاستصلاح تارةً يكون بالزراعة ﴿**وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾[الحجر:19]، وتارةً أخرى، يكون باستخراج ما فيها من خيرات وكنوز ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ...**﴾[البقرة:267]، حيث جاءت العبارة عامّة لتشمل كلّ ما يُستخرج من الأرض، إذ إنّ الأرض تحمل خيرات وثروات معدنيّة، لعلّ الآية الكريمة التالية أيضًا تُلمح إليها:

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج18، ص375.

2- الفضل بن الحسن الطبرسيّ، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج6، ص582.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ...﴾[النحل:13]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...﴾[الجاثية:13].

والأرض تحتوي بداخلها أيضًا المعدن الأكثر فائدةً للبشريّة في مختلف احتياجاتها، وهو الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد:25]. ولإدراك أهمّية الحديد، فلنا أن نتصوّر حياة البشر لو لم يتوفّر هذا المعدن الهامّ بين أيديهم، فهو يدخل في جميع مجالات الإنتاج البشريّ: الزراعيّة والصناعيّة والتجاريّة وغيرها.

3 - البحار والأنهار

إلى جانب أهمّية الماء في حياة الكائنات الحيّة، فإنّ له أهمّيةً أخرى تأتي من خلال تشكّله في البحار والأنهار، ولهذا يذكرهما القرآن في سياق تعداد النعم الإلهيّة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾[إبراهيم:32].

ويُعدّ البحر مصدرًا للثروات من جهات عدّة تلخصها الآية الكريمة تقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:14]، فمن أهمّ فوائد البحر: ما فيه من أسماك تعدّ عنصرًا غذائيًّا هامًّا في الكمّ والنوع، وما فيه من أصداف وحليّ للزينة: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ... يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[الرحمن:19-22]، مضافًا إلى كونه وسيلة مهمة للنقل عبر العالم، حيث تجوب السفن البحار، تنقل الأفراد والمؤن والعتاد بين شرق الأرض وغربها.

ولا يخفى كذلك أهمّية الأنهار، في تأمين مياه الشرب والريّ والخدمة من جهة، وفي ما تحمله من ثروات حيوانيّة ونباتيّة كذلك، وكونها وسيلة للنقل الداخليّ، وغير ذلك من الفوائد المتعدّدة المفصّلة في محلّها.

4 - الثروة الحيوانيّة

من مصادر الثروة التي يذكرها القرآن، مع شيءٍ من التفصيل: الأنعام المُسخّرة لخدمة الإنسان في مجالاتٍ عدّة، وهو ما يُعبرَّ عنه اليوم بمصطلح «الثروة الحيوانيّة»، إذ تشكّل الحيوانات بالفعل ثروةً مهمة، لما تحمله للإنسان من خدمات وفوائد. يقول تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ

لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[النحل:5-8].

وتبيّن الآيات الكريمة بعض فوائد الحيوانات: في تأمين الملبس الذي يوفّر الدفء، وتأمين المأكل والغذاء الوفير، سواءً من ألبانها وما يُشتقّ منها من ألوان الطعام المتنوّع، أو من لحومها المتنوّعة بتنوّع الأنعام أيضًا، أو حتّى من بيضها إذا شملنا الدواجن والطيور كذلك. ومن فوائدها أيضًا الجانب الجماليّ وما تشكّله من زينةٍ تسرّ الناظرين، والفائدة الكبيرة في حمل الأثقال عن الإنسان وخصوصًا في الماضي، وهذا مظهرٌ من مظاهر الرأفة والرحمة الإلهيّة بالإنسان خليفته في الأرض: ﴿**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[البقرة:143].

وفي آيةٍ أخرى، تفصيلٌ لجانبٍ هامٍّ من جوانب الاستفادة من الحيوانات: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**﴾[النحل:80]. ولا يخفى أنّ كلمة «منافع» في قوله تعالى ﴿ **لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ**﴾، قد تشمل جوانب أخرى، وإن لم تفصّلها الآيات الكريمة، فقد جعل الله في هذه المخلوقات من الفائدة، إلى حدّ، أنّ الإنسان يستفيد حتّى من روثها للتسميد وإغناء التربة للزراعة والإنبات.

5 - الموارد البشريّة

من العناوين المطروحة حديثًا، في سياق تعداد الثروات: الموارد البشريّة، باعتبار أنّ العنصر البشريّ، وما يحمله من مواصفات وميّزات، يشكّل للمجتمع مصدر قوّة وإنتاجيّة في مجالاتٍ مختلفة.

لا يوجد في القرآن هذا المصطلح، كما لا يوجد تفصيل عن واضح ومباشر عن مفهومه، غير أنّنا إذا أنعمنا النظر تدبرًا، فسنجد آياتٍ عديدة قد ذكرت هذه النعمة، في سياق بيان جانبٍ من جوانب الثروة، كما في قوله تعالى: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...**﴾[الكهف:46]، فذكر البنين مع الأموال لا يقتصر على بيان كونهما زينةً فحسب، بل فيه إشارةٌ إلى أنّ البنين يشكّلون ثروة للإنسان، ولكن لا بالمعنى الماديّ الضيّق، بل بما يُعبّر عنه بـ «الموارد البشريّة».

هناك إشارة أخرى يمُكن أن نلمسها في الآيات الكريمة التي تحكي بلسان نوح (ع): ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[نوح:10-12]، حيث ذكر البنين في سياق تِعداد النِّعم والثروات المتعدّدة(الأموال، الجنّات، الأنهار).

ولا تقتصر الثروة البشريّة على البنين، بل تشمل غيرهم أيضًا، كما في الآية الكريمة: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا**﴾[الإسراء:6]، حيث إنّ عبارة «أكثر نفيرًا» تبيّن حقيقة أنّ مجتمع هؤلاء (بني إسرائيل)، يتمتّع بقوّة الموارد البشريّة، إلى جانب قوّته في الأموال والنفوذ.

6 - العمل

إلى جانب ما تقدّم، نلاحظ تأكيدًا خاصًّا على دور الإنسان في الاستفادة من المصادر الطبيعيّة للثروة من خلال ما يبذله من جهدٍ لتحصيل الثروة والحفاظ عليها. ونجد أنّ عددًا من الآيات التي تذكر مصادر الثروة، تقرن معها دور الإنسان في العمل للاستفادة منها بالشكل المطلوب. يقول عزّ وجلّ: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾[الملك:15]، فالآية تشير إلى أنّ الأرض مهيّأة للاسترزاق، ولكن يبقى دور المرء في ذلك: «فامشوا، وكلوا». ويقرب من هذا التعبير، تعابير تتكرّر في القرآن الكريم، وهي تُفيد ما يقرب من هذا المعنى، من قبيل: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[الجمعة:10]..، وغيرها.

وكل ذلك يأتي ضمن إطار تأكيد القرآن على عمل الإنسان، ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...**﴾[التوبة:105]، فأكثر الآيات التي تتحدّث عن الإيمان تقرنه بالعمل الصالح. ولا مجال لوصول الإنسان إلى مبتغاه دون العمل والسعي ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[النجم:39].

قد يرى البعض أنّ العمل والسعي المذكور في الآيات، يُراد منه خصوص الأعمال العباديّة، بالمعنى الأخصّ أو بالمعنى الأعمّ، ولكنّ الصحيح أنّها عامّة تشمل مطلق العمل (حتّى السيّئ منه)، وبالتّالي، يندرج ضمنها العمل لتأمين الحاجات الحياتيّة. ومن جهةٍ أخرى، فمن المعلوم أنّ السعي لطلب الرزق إذا كان بنيّة خالصة لله، ومع التزامٍ بالضوابط التي حدّدها في شرعه، يكون وسيلةً للتقرّب إليه جلّ وعلا، أي يكون مصداقًا للعبادة بالمعنى الأعمّ، فتشمله الآيات المذكورة على كلّ حال.

وينبغي أن لا يتصوّر أنّ الجزاء الإلهيّ للعمل محصورٌ بالأُخرويّ منه، بل ينصّ القرآن على أنّ العمل الصالح (ومنه العمل لكسب الثروة)، تنعكس نتيجته في الدنيا قبل الآخرة: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾[النحل:97].

● **المصادر المعنويّة للثروة**

من أهمّ الركائز التي تقوم عليها النظرة القرآنيّة لمصادر الثروة كذلك: أنّ المصدر الأصليّ للثروات هو الله تعالى، فهو الخالق الرازق، وهو الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ..**﴾[القصص:82]، كما إنّ الرزق بيده وحده سبحانه: ﴿**أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ..**﴾[الملك:21]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[الذاريات:58].

نعم، لقد قدّر الله عز وجل بحكمته أن تجري الأرزاق وفق أسبابٍ خلقها وقدّرها، فمنها الأسباب الماديّة التي تشكّل مصادر ماديّة للثروة،(تحدثنا عنها قبل قليل بمستنداتها القرآنيّة)، ومنها الأسباب المعنويّة، التي سنتحدث عنها في إطار هذا العنوان، حيث نجد القرآن الكريم قد نصّ أيضًا على جملةٍ من العوامل التي تفتح أبواب الرزق، وهي ليست من المصادر الماديّة المعهودة، ولذلك لا نجد حديثًا عن هذه المصادر عند غير المؤمنين وأهل القرآن، وهذا يشكّل اختلافًا جوهريًّا بين النظرة القرآنيّة والنظرة الماديّة الضيّقة التي تنكر ما وراء المادّة، فتنكر بعض المصادر التي سنأتي على ذكرها، أو قد تعمل على توجيه بعضها بما يتوافق مع فكرة حصر مصادر الثروة بالماديّ منها فقط.

ولا يخفى أنّه من غير الصحيح الاعتقاد بأنّ الله تعالى مصدرٌ معنويٌّ للثروة، بحيث يكون في عرض المصادر الأخرى، فهذا نحوٌ من الشرك والعياذ بالله، وإنّما الاعتقاد بأنّ الرزق بيد الله وحده لا يشاركه في ذلك شيء، وأمّا الأسباب والمصادر التي خلقها وقدّرها فهي تحت سلطته وإرادته، فالعلاقة بين الأسباب ومُسبِّبها طُوليّة لا عرضيّة[1].

1 - الإيمان والتقوى

أوّل المصادر المعنويّة التي ذكرها القرآن: الإيمان والتقوى، وعادةً ما يُذكران معًا باعتبار أنّ التقوى عمليّة خارجيّة، تعكس اعتقادًا داخليًّا، يدفع للقيام بالأفعال المرتبطة بالتقوى. فكما إنّ الشخص الذي يتّقي المكان الخَطِر (مثلاً) إنّما يفعل ذلك نتيجة اعتقاده بخطورة ذلك المكان، وأنّه لا بدّ من تجنّبه للمحافظة على نفسه. كذلك الأمر بالنسبة للذي يمارس عمليّة «تقوى الله»، إنّما يندفع إلى ذلك، نتيجة اعتقاده الداخليّ بمبدأ التوحيد والمعاد وسائر أصول الدين وتفاصيلها.

من هنا، يمُكن أن يُقال: إنّ التقوى هي التجلّي العمليّ للإيمان، فالمؤمن يُترجم إيمانه القلبيّ

1- للمزيدٍ من التفاصيل راجع: عبد الله جوادي آملي، تفسير تسنيم، ج6، ص171-172.

بالتقوى، كما إنّ التقوى تستند إلى الإيمان، وأيّ خللٍ في أحدهما يكشف عن خللٍ في الآخر؛ فإذا كان الإيمان القلبيّ ضعيفًا، كان الالتزام بالتقوى ضعيفًا أيضًا، والعكس صحيح.

وعلى أيّ حال، فقد نصّ القرآن على أنّ الإيمان والتقوى مصدرٌ للرزق وتحصيل الثروة: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾[الأعراف:96]. وفي شرحه للآية الكريمة، يذكر العلاّمة الطباطبائيّ بعض مصاديق هذه البركات قائلا: « لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه، فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحرّ والبرد، وغير ذلك، كلٌّ في موقعه وبالمقدار النافع منه، وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها»[1].

ويقول تعالى في موضع آخر: ﴿**..وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا**﴾[الطلاق:2-3]. وهنا نُلفت النظر إلى مسألتين:

الأولى: يصرّح القرآن بأنّ التقوى باب لحلّ المشاكل واستنزال الرزق، من مصادر قد لا يتصوّرها المرء، وفي هذا تأكيدٌ على أصل فكرة وجود مصادر معنويّة للثروة. ولا نعني أنّ الرزق لن يأتي عبر وسائط ووسائل ماديّة، فطبيعة الثروات الماديّة، تقتضي أن تصل عبر وسائط ماديّة، ولكنّ الكلام في تدبير هذه الوسائط وسوقها بالشكل الذي يُوصل الثروة إلى يد العبد، فهذا قد لا يتمّ بالأسباب والوسائط الماديّة المعهودة، وإنّما بتدبيرٍ إلهيٍّ خاصّ نتيجة الإيمان والتقوى.

الثانية: تذكر الآية الكريمة دور التوكّل كمصدرٍ معنويٍّ أيضًا: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[الطلاق:3]، ولكن يُمكن القول: إنّ التوكّل ناتجٌ عن الإيمان والتقوى، فيكون مندرجًا فيهما تلقائيًّا، وأمّا ذكره مستقلاً، فلعلّه من باب التأكيد على ما فيه من الارتباط باللّه تعالى، مسبّب الأسباب ومدبّر الأرزاق.

2 - الشكر

من المصادر المعنويّة – الأخرى- التي يؤكّد عليها القرآن أيضًا: الشكر، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾[إبراهيم:7]. والآية صريحة في أنّ الشكر سببٌ لازدياد النعمة وفق السنّة التي سنّها الله، وبهذا يشكّل شكره تعالى على نعمه،

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج8، ص201.

مصدرًا معنويًّا آخر للثروات. صحيحٌ أنّ الشكر مندرجٌ تحت عنوان الإيمان، وهو شرطٌ من شروطه، ولكن لمّا كان القرآن قد أكّد على الشكر بشكلٍ خاصّ، كان مناسبًا أن يُذكر بعنوانٍ مستقلٍّ، ضمن المصادر المعنويّة للثروة.

على أنّ الشكر لا يقتصر على اللسانيّ منه، بل يشمل العمليّ منه أيضًا، ولذا كان الاعتراض على النِّعم نوعًا من الكفر والجحود العمليّ، كما هو حال بني إسرائيل: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا..**﴾[البقرة:61]، فكانت النتيجة أن قال لهم موسى (ع) مع شـــيءٍ من التهكـّم: ﴿**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُواْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ..**﴾[البقرة:61].

وفي مُقابل الشكر، فالجحود والتنكّر للنّعم الإلهيّة لا يحرم المرء من الزيادة فحسب، بل قد يحرمه من كثيرٍ من المصادر الأخرى، فيُوقعه في الجوع والقحط وقلّة الموارد: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ**﴾[النحل:112]، والكفر بأنعم الله هنا معناه الجحود، أي ما يقابل معنى الشكر، كما هو المستفاد من قوله تعالى أيضًا: ﴿**..هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..**﴾[النمل:40]، فمقابلة الكفر للشكر تدلّ على هذا المعنى.

3 - الاستغفار

من العناوين المتفرّعة عن الإيمان، وقد أكّد القرآن عليها لخصوصيّة فيها: الاستغفار. تقول الآية الكريمة نقلاً لخطاب النبيّ هود (ع) مع قومه: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ**﴾[هود:52]، حيث يصرّح(ع) ومعه القرآن، بأنّ الاستغفار سببٌ لاستنزال المزيد من الأمطار، وما يستتبع ذلك من وفرة في الزرع والخيرات المتنوّعة، فيكون الاستغفار بذاته مصدرًا من المصادر المعنويّة للثروة.

وفي تفصيل أكثر لنتائج الاستغفار، يقول تعالى عن لسان نبيّه نوح(ع): ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾[نوح:10-12]. يقول العلاّمة الطباطبائي تعليقًا على الآيات السابقة: « فلمغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمات العامّة، وانفتاح أبواب النِّعم من السماء والأرض، أي

إنّ هناك ارتباطًا خاصًّا بين صلاح المجتمع الإنسانيّ وفساده، وبين الأوضاع العامّة الكونيّة المربوطة بالحياة الإنسانيّة وطيب عيشه ونكده»[1]. وفي كلامه لفتة لطيفة حول الارتباط الذي جعله الله تعالى بين صلاح المجتمع الإنسانيّ وفساده من جهة، والأوضاع العامّة الكونيّة من جهةٍ أخرى، بما يؤكّد على فكرة المصادر المعنويّة للثورة، وضرورة الاهتمام بها لتحصيل سعادة الإنسان في الدارين. وهذا يفتح أمامنا الباب للحديث عن أهمّية تطبيق الأحكام الإلهيّة، وتأثير ذلك في زيادة الثروات كما سيأتي.

4 - الإنفاق في سبيل الله

من المبادئ التي يقوم عليها الاقتصاد الرأسماليّ، استثمار الأموال في ما يجلب الأرباح، ومن هذا المنطلق لا يرى الرأسماليّون ضيراً في الاستثمار في القروض الربويّة، بل يشجّعون عليها، إذ يرونها جاذبةً للأرباح المعبّر عنها بـ«الفائدة». أمّا «الاقتصاد القرآنيّ» فإذ يرفض الربا بشكلٍ جازم، يطرح في المقابل مصدرًا معنويًّا لاستجلاب الثروة يستفرد الإسلام بفكرته، وهو الإنفاق في سبيل الله.

مضافًا إلى تصريح القرآن، بأنّ ما يُنفَق في سبيل الله يعود إلى صاحبه: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾[البقرة:272]، يزيد على ذلك، بما يصرّح به في آياتٍ أخرى حول دور الصدقات في مضاعفة الأموال وزيادتها: ﴿**يَمْحَقُ اللّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ...**﴾[البقــرة:276]، ﴿**وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾[الروم:39]. ومن الصور الجميلة في ذلك، ما تقدّمه لنا الآية الكريمة: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[البقرة:261].

قد يُفهم أنّ ما ذُكر، يُشير للأجر المضاعف في الآخرة، فتكون «الأرباح» الحاصلة من الصدقات مُذّخرةً للآخرة، وليس لهذه الدنيا، والتحليل التجاريّ(المادي) الصرف، قد يقود إلى قناعةٍ بأنّ الصدقة تُنقص من ثروة صاحبها، فمن أين يأتي العائد المضاعف؟ ولكنّنا نلاحظ أنّ الآيات لم تقيّد أرباح الصدقات ومضاعفتها بالأجر والثواب الأُخرويّ، بل جاءت مطلقة، يُفهَم من سياقها شمولها للدنيا والآخرة. ومن جهةٍ أخرى نرى كمًّا كبيراً من الروايات تؤكّد على حقيقة أنّ الصدقة وسيلة لاستنزال الرزق وزيادته في الدنيا، فعن أمير المؤمنين(ع): « فَرَضَ اللَّهُ الإيمانَ تَطهيراً مِن الشِركِ، والصلاةَ

1- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج20، ص30.

تَنزيهًا عَن الكبر، والزكاةَ تَسبيبًا للرزق»[1].

ولا يقتصر الأمر على ما في الحديث النبويّ: « مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَة قَطّ»[2]. بل قد ورد أيضًا عن أمير المؤمنين (ع): «اِستَنزِلُوا الرِّزقَ بِالصَّدَقة»[3]، وعنه(ع) أيضًا: «إذا أملَقتُم فَتاجِرُوا اللَّهَ بِالصَّدَقة»[4]. وكذا في الحديث عن الإمام الصادق(ع): «إنيّ لَأُملِقُ أحيانًا، فَأُتاجِرُ اللَّهَ بِالصَّدَقة»[5].

ومنه يُعلَم أنّ الإنفاق في سبيل الله مصدرٌ معنويّ للثروة، يشمل الصدقات المستحبّة، كما يشمل الواجبة منها، كالزكاة والخُمس، وغير ذلك من النفقات الواجبة على المكلّفين، التي إذا تطابقت مع ما رسمته الشريعة من أحكام، وكانت خالصةً لله تعالى، شكّلت مصدرًا معنويًّا للرزق والثروة.

5 - التطبيق الاجتماعيّ للأحكام الإلهيّة

من المصادر المعنويّة التي يذكرها القرآن للثروة – كذلك- : تطبيق الأحكام الإلهيّة، كما هو مستفاد من الآية الكريمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم..**﴾[المائدة:66]. والآية وإنْ كانت تتحدّث عن أهل الكتاب، ولكن من الواضح من سياقها، أنّها بصدد بيان قاعدة كلّيّة، مفادها أنّ الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهيّة، يُضاعف الخيرات والبركات، وهذا ما تقرّره الآية التالية أيضًا: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا**﴾[الجنّ:16].

وليس من الصعب تصوّر دور تطبيق الأحكام الإلهيّة في زيادة الثروات، فتطبيق الأحكام هو شكلٌ من أشكال التقوى التي تقدّم الكلام على دورها في الرزق، وكذلك على المستوى الاجتماعيّ، فإنّ تطبيق الأحكام يعني تحقيق الأهداف الإلهيّة التي رسمها للمجتمع الإيمانيّ، ومن أهمّ الأهداف تحقيق العدالة ﴿**إِنَّ اللَّه يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ..**﴾[النحل:90]، و﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..**﴾[الحديد:25]، والعدالة تنعكس آثارها على الجميع، وتشمل الرخاء الاقتصاديّ ووفرة الخيرات. وإلى هذا المعنى يشير الحديث عن الإمام

1- محمد ريشهري، ميزان الحكمة، ج4، ص395، ح9437.
2- محمّد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج93، ص131، ح62.
3- محمد باقر المجلسي، ج78، ص68، ح13
4- نهج البلاغة، الحكمة 258.
5- محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، ج78، ص206، ح54.

عليّ(ع): «بالعَدل تَتَضاعَفُ البرَكاتُ»[1]. وكذا ما ورد عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ (ع): «إِنَّ النَّاسَ يَسْتَغْنُونَ إِذَا عُدِلَ بَيْنَهُمْ، وَتُنْزِلُ السَّمَاءُ رِزْقَهَا وَتُخْرِجُ الْأَرْضُ بَرَكَتَهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى»[2].

ومن أهمّ الأحكام الإلهيّة التي ينبغي تطبيقها: أن يتجنّب المؤمن المصادر المحرّمة في تحصيل الثروات، فما تقدّم من مصادر ماديّة ومعنويّة، ينبغي أن تبقى ضمن إطار ما حدّدته الشريعة، حيث نصّت على حُرمة بعض المكاسب، إمّا لضررٍ ذاتيٍّ فيها، وإمّا لكونها تضرّ بمبدأ العدالة الاجتماعيّة الذي لا يتهاون الإسلام فيه أبدًا[3].

من هنا، حدّد القرآن قاعدة عامّة في مجال التكسّب بالمعاملات مع الآخرين، وهي التي تنصّ عليها الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ..**﴾[النساء:29]، فكلّ انتقال لثروة من إنسان إلى آخر، ينبغي أن يكون على أساس الحقّ أو التراضي، فتحرُم السرقة والغشّ والتدليس، وكلّ شكلٍ من أشكال أكْلِ المال بالباطل.

وقد حارب القرآن بشدّة الربا في القروض، بل اعتبره نوعًا من الحرب على الله!: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ..**﴾[البقرة: 178-179]، وكذا حُرّم بيع الخمر والخنزير والميتة وما شابه، انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ..**﴾[المائدة:3]، حيث إنّ التحريم هنا، وإن كان قد ينصرف إلى الأكل، ولكنّه يدخل ضمن قاعدة عامّة يذكرها الإمام الصادق(ع) إذ يقول: « الْحَلَالُ مِنَ الْبُيُوعِ، كُلُّ مَا هُوَ حَلَالٌ مِنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ قِوَامٌ لِلنَّاسِ وَصَلَاحٌ وَمُبَاحٌ لَهُمُ الِانْتِفَاعُ بِهِ، وَمَا كَانَ مُحَرَّمًا أَصْلُهُ مَنْهِيًّا عَنْهُ لَمْ يَجُزْ بَيْعُهُ وَلَا شِرَاؤُهُ»[4].

ومن الحديث عن أهمية العدل وتطبيقه على المستوى الاجتماعي، نُكمل الكلام حول تكليف الإنسان تجاه إنفاق الثروات وتوزيعها، وما الضوابط التي يحدّدها القرآن للإنفاق المرتكز على مبدأ العدالة الاجتماعيّة؟

1- الآمدي، غرر الحكم، ح4211.
2- محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج3، ص568، ح6.
3- لمزيدٍ من التفصيل يُراجع: مرتضى الأنصاريّ، كتاب المكاسب، ج1، ص14.
4- القاضي النعمان المغربي، دعائم الإسلام، ج2، ص18.

6 - الإنفاق العادل

ينـصّ القرآن الكريـم على أنّ جميـع مـوارد الثـروات المختلفـة مسـخّرةٌ للإنسـان ونفعـه: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ...**﴾[الجاثية:13]، غير أنّه يُبيّن كذلك، جملةً من الضوابط الحاكمة على هذا التسخير، لعلّ العنوان الجامع فيها قوله تعالى: ﴿**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾[البقرة:60]، فالإفساد هو المحرّم، وفي مقابل الإفساد، يقف مبدأ العدالة، بإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، وبوضع كلّ شيءٍ في موضعه. ومن هنا، كان من الضروريّ أن نتعرّف على حدود هذه العدالة في الإنفاق، حتى لا يقع الإنسان في الإفساد: فالله عز وجل يقول: ﴿**وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾[المائدة:64].

ثمّ إنّه ليس اعتباطيًّا أن تُنسب صفة العدل إلى الإنفاق المطلوب قرآنيًّا، فإذا تأمّلنا في ضوابط الإنفاق التي يذكرها القرآن، نجدها تتمحور حول العدل، وهذا العدل تارةً نلحظه في علاقة الإنسان بربّه، وتارةً أخرى في علاقته بنفسه، وثالثةً بمحيطه الطبيعيّ، ورابعةً في علاقته بمحيطه الاجتماعيّ (تُجاه الآخرين).

أ- الإنفاق العادل بلحاظ علاقة الإنسان بربّه

لا يخفى أنّ كلّ إنفاق عـادل، يرجـع إلى علاقة الإنســان بربّه بشكلٍ عـام، يقول سبحـانه: ﴿**وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّه بِهِ عَلِيمٌ**﴾[البقرة:273]، ولكنّ المقصود هنا خصوص الإنفاق الذي لا يدخل ضمن الأقسام الثلاثة الأخرى، فهو إنفاقٌ لــ«حقّ الله» بشكلٍ خاصّ، ومصداقه دفع الحقوق الشرعيّة الواجبة، من زكاة وخُمس، حسب ما فصّلته الشريعة، وأشارت إليه الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[البقرة:254]، حيث يُعلَم من التهديد الوارد في ذيل الآية، أنّ الإنفاق المقصود هنا هو، خصوص الواجب منه.

ب- الإنفاق العادل بلحاظ علاقة الإنسان بنفسه

إلى جانب الإنفاق الواجب، يحثّ القرآن على المستحبّ من الإنفاق في سبيل الله، ولا نجد لهذا الحثّ حدودًا إلّا ما حدّده الله بقوله: ﴿**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ..**﴾[البقرة:195]، فشرط الإنفاق أن لا يصل إلى حدٍّ يكون فيه إجحاف لحقّ النفس، بما يُعدّ تهلكةً وضررًا معتدًّا به: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[الحجّ:78].

فعلى المؤمن أن يكون متنبّهًا، كي لا يقع في المحظور أو الضرر من باب فعل المستحبّ، وذلك إذا أجحف بحقّ نفسه، بحيث أصبح ظالمًا لها. وكذلك عليه أن يراعي الاعتدال في مطلق الإنفاق وتوزيع الثروة، فالإفراط غير المحسوب يوقع في الخسران، كما يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾[الإسراء:29]. في حين إنّ من صفات عباد الرحمن أنّهم: ﴿**..إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾[الفرقان:67].

وبشكل عام، يحثّ القرآن على حُسن التدبير، ومن ذلك أن لا توضع الثروات في المواضع التي قد تتبدد فيها أو تضيع: ﴿**وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا**﴾[النساء:5]، ولهذا جاءت أحكام الحَجْر على أموال السفيه، لأنّ الله تعالى لا يرضى بأن تضيع الثروات بسوء التدبير المُفرط.

ت- الإنفاق العادل بلحاظ العلاقة بالمحيط الطبيعيّ

على الرغم من أنّ الثروات الطبيعيّة متاحة ومسخّرة لخدمة الإنسان كما تقدّم، كذلك تقع عليه مسؤوليّات في إنفاق هذه الثروات ضمن الحدود التي رسمها القرآن: ﴿**كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾[البقرة:60]، فالفساد مذمومٌ، لما يُسبّبه من إضرار بالثروات الماديّة والبشريّة: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[البقرة:205].

ومن أهمّ مصاديق الإفساد: الإسراف في الموارد الطبيعيّة، والإسراف من السرف، بمعنى «مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ»[1]. فقد أباح الله التنعّم بالخيرات، ولكنّه حذّر من تجاوز المقدار المطلوب: ﴿**وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[الأعراف:31]. من هنا، كان الإسراف شكلاً من أشكال الظلم، لما فيه من مجاوزةٍ للحدّ، وهذه المجاوزة تقع في التكسّب، بأخذ المرء أكثر من حقّه، كما تقع في الإنفاق، باعتبار أنّ استهلاك الموارد مظهرٌ لإنفاقها والتصرّف فيها، وإخراج الاستفادة منها من القوّة إلى الفعليّة، وبالتالي، ففي الإسراف ظلمٌ في الإنفاق بالدرجة الأولى، وينعكس هذا الظلم على صعيد الإنسان نفسه، وعلى صعيد محيطه الطبيعيّ، لما فيه من إتلافٍ للموارد دون حاجة، وعلى صعيد المحيط الاجتماعيّ، باعتبار أنّ الموارد الطبيعيّة مُسخّرةٌ للجميع، فهي بمنزلة مُلكٍ عامّ، وُجِدَ ليستفيد منه الجميع، فإذا تجاوز أحدهم حدّه في الاستفادة منها، كان في الواقع منفقًا لما يقع في

1- أحمد بن فارس ابن زكريّا، معجم مقاييس اللغة، ج3، ص153.

حدود غيره، ولذا جاء في الحديث: «ما جاعَ فَقيرٌ إلّا بما مُتِّعَ بِهِ غَنيٌّ»[1].

ث- الإنفاق العادل بلحاظ العلاقة بالمحيط الاجتماعيّ

تتجلّى الحاجة إلى العدالة في العلاقات الاجتماعيّة بشكلٍ واضح، فالتزاحم بين المصالح، قد يدفع الناس لظلم بعضهم بعضًا، ونشير إلى بعض الموارد التي يدعو القرآن إلى مراعاتها في الإنفاق الاجتماعيّ، حيث يذكر حالاتٍ فيها تفريطٌ أو إفراط في الإنفاق:

حالات التفريط في الإنفاق: يدعو القرآن إلى إعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، دون بخسٍ ولا إغماض: ﴿**فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...**﴾[الأعراف:85]، وكذا يُواجه القرآن بشدّة المطفّفين الذي يُخسرون حقّ الآخرين في المعاملات التجارية فيقول: ﴿**وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾[المطفّفين:1-3].

وكذلك، يؤكّد القرآن على منح الزوجة حقّها في الصداق، وأن لا يُنقَص منه شيءٌ إلّا برضاها وطيب خاطرها: ﴿**وَآتُواْ النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا**﴾[النساء:4]، وينهى عمّا يفعله بعضهم بالتضييق على الزوجة، لدفعها للتنازل عن مالها وحرمانها من حقّها قهرًا فيقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ..**﴾[النساء:19].

وكذلك تجب مراعاة حقّ اليتامى، بإعطائهم أموالهم كاملةً، في الوقت المناسب الذي يحفظها لهم: ﴿**وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ..**﴾[النساء:6].

وممّا ذمّه القرآن – كذلك- و واجهه بشدّة: الاحتكار وكنز الثروات: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[التوبة:34]. صحيحٌ أنّ الذين يحتكرون أو يكنزون يتصرّفون في أموالهم حسب الظاهر، والقاعدة تقول: «الناس مسلّطون على أموالهم»، لكنّهم باحتكارهم - في الحقيقة - يُعرقلون الدورة الاقتصاديّة بما يضرّ بالمجتمع عمومًا، عبر تعطيل حركة الأموال والثروات فيه، وهو ما لا يرضاه القرآن.

كما يذكر أنّ غاية تشريع الخُمس هي: ﴿**.. كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ..**﴾[الحشر:7]، فالثروات ينبغي أن لا تكون حكرًا على الأغنياء يتداولونها بينهم، بل لا بد من انتقالها عبر حركة اقتصادية، بحيث يستفيد منها جميع أبناء المجتمع.

1- نهج البلاغة، الحكمة 328.

ومنه نفهم تأكيد القرآن على الإنفاق على الفقراء بشكلٍ خاصّ: ﴿**إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ..**﴾[التوبة:66]، وسواءً أكانت الصدقات واجبةً أم مستحبّة، فمن أهمّ غاياتها تحريك العجلة الاقتصاديّة، عبر دعم المحتاجين والتقليل من الهوّة الاقتصادية الموجودة بين الطبقات الاجتماعيّة التي يفرزها الوضع الاقتصاديّ عمومًا.

ولعلّه في هذا السياق نفسه، نفهم مواجهة القرآن للربا بشدّة، مع أنّ القرض مستحبّ مؤكّد، حتى إنّ القرآن يسمّيه «قرض الله» (ورد مفهوم القرض في القرآن في 12 موضعًا): ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً..**﴾[البقرة:245]، وهو من أهمّ مصاديق الإنفاق المطلوب في المجتمع، مع ذلك، يؤكّد القرآن على الإقراض البعيد عن الربا، حتى لا تنقلب مساعدة المحتاج للقرض إلى وبالٍ عليه، من خلال تراكم الديون التي تتسبب فيها الربا، فيزداد الغنيّ غنًى، والفقير فقرًا، وهذا خلاف توجيهات القرآن الذي يذمّ المُرابين فيقول: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..**﴾[البقرة:275]، بل يعتبر أنّ أخذ الربا سيكون سببًا لإعلان حرب الله ورسوله على المرابين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ..**﴾[البقرة:278-279].

حالات الإفراط في الإنفاق: قد يقع الإفراط في الإنفاق الاجتماعيّ، بإعطاء المال في غير حقّه، كما يقول أمير المؤمنين(ع): «أَلَا وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ..»[1]. وهذا التبذير ذكره القرآن بوضوح إذ يقول: ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ..**﴾[الإسراء:26-27]، فكما ينبغي أن لا يُنقَص حقّ أحدٍ وإلّا كان تفريطًا في الإنفاق، كذلك ينبغي أن لا يوضَع الحقّ في غير موضعه، وإلّا كان إفراطًا فيه، والإفراط من هذه الجهة يستلزم تفريطًا من جهةٍ أخرى، فيقع المحظور على كلّ حال.

ومن موارد وضع المال في غير موضعه: الرشوة التي يحرّمها القرآن وينهى عنها بشدّة، وبخاصّة في المسائل القضائيّة: ﴿**وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:188].

ولم يغفل القرآن عن ذكر تفاصيل متعلّقة بالإرث، لما قد يقع فيه من تفريطٍ أو إفراط، يؤدّي لضياع الحقّ وانتقاص العدالة، والمُلفت أنّ آيات الإرث، - بعد أن تحدّد ميزانًا دقيقًا وتفاصيل بيّنة - نجدها

1- نهج البلاغة، الخطبة 126.

تختم فتقول: ﴿..فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ﴾[النساء:11]، و﴿..وَصِيَّةً مِّنَ اللّهِ﴾[النساء:12]، للتأكيد على أنّ الحقوق المذكورة في الإرث، وغيرها ممّا فرضه الله وأوصى به، ضمن إطار العدالة في الإنفاق وتوزيع الثروات بالعدل والإحسان.

الخاتمة

لعلّ النتيجة الأهمّ التي نصل إليها، أنّ القرآن يقدّم رؤية كاملة حول موضوع مصادر الثروة وتوزيعها العادل، فيبيّن أنّ مصادر الثروة غنيّة، تحيط بالمرء من مختلف الجوانب، وإنّما عليه أن يتوجّه إليها، فيعمل لتحصيلها بما أحلّه الله من مكاسب وطرق للانتفاع، ودون أن يغفل عن المصادر المعنويّة التي لا تقلّ أهمّية عن المادية. ومن ثمّ على المرء أن يُراعي طرق إنفاقه للثروات التي تصل إليه، فلا يخرج في إنفاقه عن حدود العدالة. والعدالة التي يذكرها القرآن في الإنفاق شاملة، لا تقتصر على مراعاة حقوق سائر الناس، بل تشمل بالدرجة الأولى «حقّ الله» بما أوجبه من حقوقٍ شرعيّة، وتشمل أيضًا مراعاة العدالة على مستوى الإنسان نفسه، فلا يبخل ولا يبذّر، وتشمل كذلك العدالة تجاه الموارد الطبيعيّة، التي لا يجوز معها الإسراف ولا الإفساد.

والإطار العامّ الذي يحكم الثروات في القرآن، تحصيلاً وإنفاقًا، إنّما هو إطار العدالة، بما تعنيه من وضع كلّ شيءٍ في موضعه، وهذا يقتضي أن يُراعي المرء العدالة في الكسب والاكتساب، فلا يسلك إلاّ ما فتحه الله أمامه من أبوابٍ، فصّلها في كتابه وشريعته، وأن يراعي العدالة كذلك في ما يُنفقه في جميع الأحوال.

والحقيقة، إنّ ما تقدّم في هذا البحث، يفتح أبوابًا كثيرة وكبيرة للكشف عن الرؤية الاقتصاديّة القرآنيّة، فكلّ عنوانٍ ممّا تقدّم، جديرٌ بالبحث والتعمّق، بالتدبر في القرآن والغوص في بواطن آياته، فهو كما يقول الإمام علي(ع): « إِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ، لاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلاَ تَنْقَضِي غَرَائِبُهُ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إِلاَّ بِهِ»[1].

1- نهج البلاغة، الخطبة 18.

المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- نهج البلاغة.
- أبو الفتح الآمديّ، غرر الحكم، دار الكتاب الإسلامي، طهران، ط1، لا ت.
- أحمد بن فارس ابن زكريّا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، 1979م.
- أحمد بن محمد الفيوميّ، المصباح المنير في شرح الغريب الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، ط1، لا ت.
- حسن المصطفويّ، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى، ط1، 1368ه. ش.
- عبد الله جوادي الآمليّ، تفسير تسنيم، مؤسّسة الإسراء، قم، ط3، 1435 هـ. ق.
- عبد علي الحويزيّ، تفسير نور الثقلين، إسماعيليان، قم، ط4، 1415هـ. ق.
- الفضل بن الحسن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم، بيروت، ط1، 2005م.
- القاضي النعمان المغربيّ، دعائم الإسلام، مؤسّسة آل البيت (ع)، قم، ط2، 1385 هـ.
- محمد باقر المجلسيّ، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط1، 2008م.
- محمد بن علي بن بابويه القمي (الصدوق)، معاني الأخبار، دار المعرفة، بيروت، ط1، لا ت.
- محمد بن يعقوب الكلينيّ، الكافي، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطبعة الثالثة، لا ت.
- محمد حسين الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلميّ، بيروت، ط2، 2002م.
- محمد ريشهري، ميزان الحكمة، دار الحديث، طهران، ط1، لا ت.
- مرتضى الأنصاريّ، المكاسب المحرّمة، مجمع الفكر الإسلاميّ، قم، ط14، 1431 هـ.
- ناصر مكارم الشيرازيّ، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار الأمير، بيروت، ط1، 2005م.